تشكّل مفهوم النّص في المنظور النقدي الغربي والعربي

-متابعة لحقيقة النّص ضمن أهم الطروحات النقدية المعاصرة-

أ.دهيمي حكيم
جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)

Abstract:

The theme of this article is essentially the evolution of the notion of text through textual vision, which in reality has greatly enriched the genesis of the theory of modern and contemporary text when knowledge focused on the issue of concept more than any other objective whose argument is: the modern knowledge is knowledge of the concepts in the first place.
In this context, this article will discuss the concept of different progression text's over occidental vision and Arab critical understanding.

Keywords:text-structure-genesis-concept–textsciences-relationship-Arabcritical-undersand-ing.

Résumé:

Le thème de cet article vise essentiellement l'évolution de la notion du texte à travers la vision textuelle qui, en réalité, a beaucoup enrichi la genèse de la théorie du texte moderne ainsi que contemporain au moment où le savoir a mis l'accent sur la question de notion plus qu'un autre objectif dont l'argument est : le savoir moderne est un savoir des notions au premier lieu.

Dans ce contexte cet article évoquera les déférentes progressions du notion du texte au fil du parcours textuel occidental et arabe.

Les mots clés : texte-structure-notion-genèse-science du texte-relation-compréhension critique Arabe**.**

ملخص:

يأخذ "المفهوم" موقعا أساسيا ضمن المعرفة المعاصرة، من منطلق أنّها معرفة مفاهيم بالدّرجة الأولى قبل أن تكون معرفة محتويات، ويترتّب عن هذا أن التّعامل مع المفهوم يعدّ استراتيجية متّبعة في فعل المقاربة التي تستهدف النّص الأدبي، إن على مستوى المنظور النّقدي أو على مستوى المنظور الثّقافي العام.

ويعد مفهوم النّص من المفاهيم المرنة التي لا تستقر على طرح معين أو على تحديد نهائي، ناهيك عن كون مفهوم النّص والتعامل مع المصطلحات التي تحيل عليه هي مسألة لم تتبلور محدّداتها بعد في الممارسة النقدية العربية بشكل ناضج مستقلّ عن منجزات الطروحات النقدية الغربية المعاصرة، يضاف إلى ذلك أن "النّص" على الرّغم من تعدّد المصطلحات الدالة عليه يمثّل مرمى جلّ المحاولات ومسعى معظم الاتّجاهات النقدية دراسة لأدواته وتحديدا لمفهومه وكشفا لمقومات تشكّله، ووقوفا عند آليات اشتغاله إلى يومنا هذا.

ولما كان أمر " النّص" بهذه الأهمية، تأتي دراستنا لتقف على تشكّل مفهوم "النص" ضمن أهم الطروحات النقدية المعاصرة تعاملا مع النص، وسعيا إلى ضبطه ضبطا مفهوميا، وأعني المقاربات النصانيةالغربية والعربية المعاصرة، المهتمّة في الأساس،بتتبّع تشكّل مفهوم النص ،الهادفة إلى كشف أهم المحدّدات الأساسية لطبيعة النص في المنظور النقدي المعاصر، الغربي والعربي على حدّ سواء، الواقفة عل طبيعة الاختلاف القائم في التحديد عبر المستويات والتفرعات المختلفة لأهم التيارات النقدية المثيرة للجدل في الساحة النقدية العربية.

الكلمات المفاتيح: النص ، البنية، المفهوم، التشكّل، معرفة النص، مبدأ العلاقة، الفهم النقدي

النص الأدبي في المنظورالنقدي الغربي المعاصر:

يمثل النّص الأدبي مرمى كل الجهود التنظيرية و التطبيقية، الفكرية والفلسفية، ومع ذلك يظلّ متمنّعا وعصيّا على التّحديد، ولعلّ السبب في ذلك كونه غاية تتنازعها مذاهب فكرية ومناهج نقدية متعدّدة ومتباينة في منطلقاتها وفي غاياتها، ما جعل مفهوم النّص متعدّدا ومرنا إلى الحدّ الذي لا نستطيع معه تحديده بمفهوم دقيق ونهائي ، فتعدّد المفاهيم والمصطلحات المتعلّقة بالنّص تبعا لتعدّد المرجعيات الفكرية والثقافية المسهمة في بناء هذه المصطلحات- وهو حال ينطبق على حال النص في الثقافة الغربية كما ينطبق أيضا على واقع النّص في البيئة العربية- و التحوّلات المفهومية التي تلحق النّص في الفضاء النقدي العربي، إنّما هي من قبيل العدوى التي تنتقل في ظروف مخصوصة إلى المنظومة المفاهيمية الثقافية العربية، فتجعل النص يتلبّس مفاهيم متعدّدة مستقاة من بيئة ثقافية غريبة عنه، وهو حال من قبيل الأمر الواقع طالما أنّ مساهمة الفكر العربي في إثراء فضاء الثقافة الغربية بالمفاهيم الجديدة التي تنعكس إيجابيا على واقعه الاجتماعي والثّقافي، وتحدّد بذلك مجال المساهمة الحضارية والإضافة إلى رصيد الإنسانية، فيكتسب معها – على سبيل المثال- مفهوم النص مرجعيته العربية تظل محتشمة.

وطالما أن هذا المطلب يظلّ من قبيل الحلم الذي يجد له منطلقا في لاوعي العربي دون أن يتجاوزه إلى دائرة الوعي الحقّة، فإنّ مفهوم النّص في المنظومة المفاهيمية التي يتحرّك ضمن أبعادها يظلّ غربيا بإمتياز، ولعلّ ما يثبت هذه الحقيقة أنّه يتعذّر علينا العثور على مفهوم قائم بذاته، مستقلّ بخصائصه الفكرية والأدبية للنّص الأدبي، على الرّغم من كون الموروث العربي ظلّ على تماس مستمر مع " النّص" في مقولاته الأصولية بصفة خاصة(نسبة إلى علم الأصول)، إذ ظلّ العقل العربي محتكما إلى سلطة النص القرآني وسلطة نصّ الحديث في كل مناحي تفكيره، علما أنّ النّص في ظلّ هذا الأفق الثقافي الأصولي يختلف تماما عن مفهوم النّص الأدبي الذي نرومه في هذا السياق من البحث، والذي يرتبط أساسا بالأدب بوصفه شكلا من أشكال الإبداع، وبالنقد بوصفه قراءة واعية ومتخصّصة حول هذا الأدب.
لقد ارتأينا أن نرصد بعض المفاهيم المتعلّقة بالنّص ضمن هذا المقال لاقتناعنا بشيئين إثنين :

أوّلهما: أن قضية المفهوم في حدّ ذاته يمثل غاية المعرفة العلمية التي تنشدها المناهج والتيارات الحديثة من منطلق« أنّ معرفة اليوم معرفة مفاهيم أكثر ممّا هي معرفة أشياء، وتبدو المفاهيم منتظمة في سلاسل تتصل أحيانا وتنفصل أحيانا أخرى، وتبدو منتجة لبعضها بعضا وكأنّها في غفلة تامّة ممّا يوجد من حولها و كأنّها في استقلال تامّ عن كلّ سلطة دون سلطتها » (1).

ثانيهما: أنّ مفهوم النّص الأدبي هو إحدى القضايا الأساسية التي شهدت تحوّلا نوعيا بين ثلاثة مراحل بارزة في الممارسة النقدية العربية بوصفها إحدى تجلّيات الثقافة النقدية الغربية في الممارسة النقدية العربية ذاتها، وأعني بهذه المراحل البارزة في تاريخ النقد الأدبي:
أوّلا: مرحلة النقد المرجعي و أعني به النّقد الذي يربط النص بمرجعه التاريخي أو الاجتماعي أو الاديولوجي أو النفسي.
ثانيهما: مرحلة النقد النّصاني، الذي يتعامل مع النّص بوصفه معطى التجربة الفنية.
ثالثهما: النّقد التحليلي أو ما يصطلح عليه بالنقد التفكيكي الذي يرتبط بفلسفة جاك دريدا وما رافقها من موقف من لا نهائية المعنى في النّص، طالما أنّ كل قراءة هي إلغاء لما قبلها من القراءات وصولا إلى تحوّل النّص إلى اللّانص، حيث يتأتّى التقويظ والهدم لبنية النص القائمة سلفا بوصفه عملية محورية ووظيفية يقوم عليها التفكيك.
تحوّل مفهوم النص في المنظور البنيوي:

لعلّ ما يهمّنا في هذا المضمار من تحوّلات مفهوم النّص هو المرحلة الثانية التي كانت إطارا فكريا وزمنيا لظهور البنيوية بوصفها اتجاها نصّانيا يهدف إلى كشف العلاقات المحدّدة لبناء النّص الذي ليس شيئا غير نظام من العلاقات يتّصف بجملة من الخصائص لعلّ أهمّها الضبط الذاتي، ما يجعل النّص يأخذ مفهوم البنية اللغوية المغلقة حول

نفسها والمشتغلة بنفسها؛ أي بوصفه مجموعة من الإجراءات المنتظمة في تركيب لغوي نصيّ ينفتح على شبكة العلاقات الداخلية التي تتبادلها عناصره، وينقطع عن كلّ تواصل مع العناصر الخارجية التي لا تنتمي إلى منظومته الداخلية، فالنّص في هذا المساق« ثابت ومغلق. له بنية مركزية أو نظام تحتي خفّي، إنّ أدبية النص أو نظامه يتشكّل من العلامات النصيّة / الذاتية الداخلية فقط، والإنسان تسيّره مجموعة من الأنظمة الخفية الثابتة، فالإنسان كائن تزامني / لا زمني، والعالم له بنية أو نظام، أي له مركز(أوروبا). فالعالم يتحرّك أو يحرّكه نظام ثابت يتكوّن من مجموعة من العلاقات، لهذا يغيّب الإنسان(بضمّ الياء) لأن العلاقات (في النّص والعالم) سابقة على الكينونة / الوجود. وكينونة النّص والعالم تأتي لاحقا لتجسيد العلاقات أو بفعلها فقط »(2).

الظّفر على معالم أكثر شساعة لمفهوم النّص في ظلّ المنظور البنيوي يستوجب جمع ما نستطيعه من مفاهيم ومقاربات مفهومية لطبيعة النّص الأدبي عبر المنعطفات المختلفة لتبلور الفكر البنيوي ابتداء بالدروس الأولى في اللسانيات العامة التي كان يلقيها ف . دو سوسير على طلابه مرورا بحركة الشكلانيين الروس و حلقة براغ وصولا إلى البنيوية الحديثة في تفرعاتها المختلفة محاولين البحث عن مفهوم متكامل عن حقيقة النص الأدبي.

فهم دو سوسير النّص على أنّه بنية لغوية، تحدّد هذا عبر مقولته:« لا شيئ يتميّز قبل البنية اللغوية» (3) . ويمكن أن نستشفّ من هذه المقولة أنّ البنية اللغوية هي الحقيقة الوحيدة الماثلة والقابلة للضبط، لذلك عدّ النص في المنظور السوسيري هو اللغة ذاتها وما تنطوي عليه من عناصر يحكمها الاتّساق فيما بينها بفضل العلاقات المتبادلة بينها والمتّصفة بالتحوّل داخل نسق محكم منقطع عن المتغيّرات الخارجية.

يمكن أن نستشف مفهوما للنص الأدبي عبر وقوفنا عند بعض أقطاب الشكلانية الروسية في تحديداتهم لغاية الفن الأدبي، فبالنسبة ل"فيكتور شلوفسكي" «غاية الفن أن يمنحنا إحساسا بالشيئ كما يرى .. إنّ فعل الإدراك في الفن غاية بحدّ ذاته.. في الفن تجربتنا في عملية البناء هي التي تحسب وليس النتاج الذي اكتمل »(4).

يحيلنا هذا المقتبس على أهم ملمح في مفهوم النّص لدى الحركة الشكلانية الروسية، وهو أنّ النّص تجربة البناء الشكلي والصياغة وهو بهذا التوصيف انعكاس لمهارة البناء وفرادة الأداة الموظفة في بناء النّص الأدبي، وهو بهذا المعنى يستمدّ حقيقته من طبيعة بنائه فهو لا يعكس أيّ صورة غير صورة النّص ذاته، فالنّص هو النّص ذاته.

تتحدّد هذه الفكرة بشيئ من التركيز على وقائع النّص، التي لا تمثّل في المنظور الشكلاني غير اشتغال العناصر الداخلية المكوّنة للبناء اللغوي؛ جسد النّص وروحه، إذ يصرّح "بوريس ايخنبوم" :« ..إنّ تآزر مجموعة الوقائع الجديدة في ظلّ التداخل الخاص يصدمنا باعتباره اكتشافا لتلك الوقائع، طالما أنّ وجودها خارج النظام .. مساو من الناحية العلمية لعدم وجودها» (5).

ما يمكن فهمه من قول "ايخنبوم"هو أنّ النّص نظام يتحدّد فيه معنى الأشياء، من خلال تموقعها ضمن علاقات متبادلة فيما بينها، يفرضها منطق نظام النّص ذاته، ما يمنحها وجودا ضمن هذا النّظام الذي يمثّل المظهر الحقيقي للبنية، وجود وكينونة هذه العناصر تظلّ مهدّدة بالسّقوط إذا ما أخذت لها موقعا خارج هذا النظام.لكن ماهي صفة هذه العلاقة التي تحفظ وجود هذه العناصر ضمن نظام البنية في العمل الأدبي ؟

« إن وحدة العمل الأدبي ليست كيانا مغلقا، ولكنّها تكامل ديناميكي، إنّ عناصره ليست مرتبطة فيما بينها بعلاقة تساو أو إضافة، بل بعلاقة التلازم والتكامل الديناميكية، ولذا يجب الإحساس بشكل العمل الأدبي كشكل ديناميكي» (6).

ويترتّب عن هذا أنّ النّص الأدبي حركة دينامية مستمرة بين مجموع عناصره المشكّلة له داخل البناء وفق مقتضيات النّظام الذي يعكس تجسّدها، وهو مفهوم لا يختلف عن سابقه طالما أنّه يتحرّك ضمن دائرة العنصر و العلاقة و التّكامل داخل النّظام .

أمّا " جاكبسون"(أحد أقطاب حركة الشكلانيين الروس وحلقة براغ اللغوية) يبلور المفاهيم السابقة ويستقي من العالم السويسري "دو سوسير" من فهمه لمسألة النّظام اللّغوي والوظائف المرتبطة به كاشفا عن حقيقة أدبية النص الأدبي إذ يقول:« موضوع العمل الأدبي ليس الأدب وإنّما الأدبية.. » (7).

وعلى الرّغم من كون كلام جاكبسون يتمحور حول " العمل الأدبي" فإنّنا نفهم من سياقه أن المفهوم ينطبق على النص، من منطلق أن العمل الأدبي يمكن أن يتّسع لمجموعة نصوص، مع العلم أن ثمّة تداخل في الاستعمال بين كل من النّص الأدبي والعمل الأدبي والمتن الأدبي في الاستخدام النقدي العربي، مع ما لهذه المصطلحات من خصوصيات.

ويترتّب عن مفهوم جاكبسون للأدبية أنّ النص الأدبي هو الكيفية التي يتحقّق وفقها البناء منطوية على الآليات المحدّدة لاشتغال العناصر داخل النظام الأدبي، ما يؤكّد تركيز جاكبسون في صياغة مفهوم النّص على مظهر البناء وأثر شبكة العلاقات الكامنة بين عناصره.

ينبغي التذكير في هذا السياق بالنموذج التطبيقي الذي قدّمه جاكبسون من خلال تحليله لقصيدة القطط للشاعر الفرنسي "بودلير" مشاركة مع " كلود ليفي ستروس"، وهو تحليل أفضى إلى جملة من النتائج، لعلّ أهمّها: أنّ الصور الشّعرية باعتبارها أشكالا بلاغية تنتج عن طبيعة التركيب وما يتضمّنه، ما يجعلنا نفهم أنّ كيفية البناء أو "التكنيك" المعتمد في صياغة النّص هو بمثابة المولّد الأصيل للصورة ولمجازية النّص، ما يؤكّد أنّ الأدبية إنّما هي معطى هندسة البناء التي تقوم بوضع كل عنصر ضمن موقعه الطبيعي من النظام اللغو؛ هذا النّظام تظلّ صفة التحوّل ملازمة له، وهومبدأ بديهي طالما أنّ التغيّر يمكن أنّ يلحق بكيفية البناء وب "التكنيك" الموظّف للّعب بجملة العناصر اللغوية المشكّلة للعمل الأدبي.

آمن ليفي ستروس بالنتائج التي توصّل إليها جاكبسون واستفاد من نظرته للعمل الأدبي ما جعله يقرّ بانّ الواقعة الاجتماعية لا تختلف عن الواقعة اللغوية مؤكّدا أنّ« أنّ المعنى لا يعطيه إلا المزيج : إلا البنية »(8).

جاك دريدا:

ارتباط مفهوم النص الأدبي بخصوصية بنائه هي الفكرة نفسها التي جعلت " جاك ديريدا"(واحد من الجيل الثاني للبنيوية) يقدّم فهمه للنّص كاشفا عن حقيقته قائلا: «لا يوجد شئ خارج النص» (9) ما يحيل إلى أنّ النص هو البنية اللغوية ذاتها التي يتلبّسها النّص وما تنطوي عليه من إمكانات الإحالة، والحفر في النّص على حدّ تعبير"دريدا" لا يعني غير إحداث ثقب في بنية النص لاكتشاف الخبايا والعناصر المتوارية خلف الوجود الفيزيائي للنّص.ولعلّ هذا ما قصده بالتفكيك الذي يستهدف العلاقات التركيبية في النّص عبر ممارسة التفتيت من أجل إعادة بناء العناصر، محقّقا اكتشاف البنية التي كانت قائمة من قبل في العمل، و كأنّ المسألة ترتبط بضرورة الهدم من أجل اكتشاف كيفية بناء النص.

رولان بارت:

أما رولان بارت فإنّه لا يختلف عن المسلك السابق فيما يتعلّق بجملة المفاهيم التي تبحث في حقيقة النص الأدبي، فالأدب في منظوره« ليس إلاّ لغة، أي أنّه نظام من الإشارات ليس كائنة في محتواه ولكنّها في هذا النّظام»(10).

ويستشف من هذا المفهوم مقارنة بالمفاهيم السابقة أنّ " رولان بارت " أقحم عنصر الإشارة (العلامة)، وهذا له مبرّره إذا ما وضعنا في الحسبان سعيه في إدخال بعض مبادئ العلامة اللغوية في محاولته لتأسيس نقد أدبي علامي(critique sémiologique)،لكن ما ينبغي أن نؤكّد عليه – من خلال المفهوم السابق– أنّ النّص الأدبي لا يزال يحتفظ بحقيقة كونه نظاما ونسقا من العلاقات المتداخلة بكيفية ما، مضافا إليه أنّ نصّ بارت نصّ إشارات بالمعنى البنيوي، طالما أن هذه الإشارات تمتدّ بصلة إلى نظام لا إلى محتوى.

جيرار جينات:

يتعيّن مفهوم النص في منظور " جيرار جينيت" من خلال اهتمامه بمسألة الأشكال البلاغية، بوصفها سبيل الولوج إلى عالم النص الأدبي، ولعلّ دراسته عن رواية "بروست"(البحث عن الزمن المفقود) في نطاق ما قام به من دراسات تحليلية لمجموعة من النّصوص الروائية يحيلنا على أهمية البحث عن الأشكال البلاغية قصد الوصول إلى مفهوم النّص. فالواقعية عنده تبتدئ من اللحظة التي يمكن فيها البحث ومقارنة كلمة أو جملة بكلمة أو جملة أخرى استخدمت في مكانها أو لم تستخدم على حدّ تعبيره، ولاريب أنّ هذا المفهوم المستقى من البلاغة يحيلنا ضمنا على قضية تحقّق النص بلاغيا أو وفق واقعية بلاغية، يتأتّى عبر إمكانية الإحاطة بحركة الكلمة أو الجملة ضمن استخدامها في النّظام اللغوي، ويترتّب عن هذا أنّ النّص يأخذ صفة "الميكانيزم" الذي تتموقع وفقه الكلمة ضمن المساق اللّغوي، وهو في نهاية المطاف تصوّر لا يشذّ عن النّسق الذي تتفاعل ضمن إطاره العناصر اللّغوية بالمفهوم البنيوي، ما يؤكد مرة أخرى استمرارية النّص وفق المفهوم نفسه، كما رأينا مع الأعلام السابقين على الرغم من الاختلاف في زاوية النظر.

هاليدي ورقية حسن:

من منظورآخر يرى هاليدي(M . Halliday) ورقية حسن أنّ حقيقة النّص قائمة على التماسك، أي المظهر الذي يعكسه انتظام العناصر ضمن النّسق اللغوي، إذ يعتبران أنّ:« النّص وحدة دلالية، وليست الجمل إلاّ الوسيلة التي يتحقّق بها النّص ..فلكي تكون لأي نصّ نصّية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللّغوية التي تخلق النّصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة» (11).

يمكن أن نستشفّ من القول السابق أنّ وحدة النّص مظهر أساسي في تحقيق النّصية، هذه الوحدة تعكس اشتغال العناصر اللغوية وفق نسقيّة محكمة، ما يذّكرنا بالكيفية التي تجعل من شبكة العلاقات النّاجزة في النّص نظاما قائما بذاته، كما مرّ علينا في المفاهيم السابقة، ما يجعلنا نستنتج أنّ موقف "هاليدي" ورقية حسن لا يشذّ عن مسار تطوّر مفهوم النص في ظلّ التّحوّلات التي شهدها النّقد العلمي من حيث ضبط المفاهيم وبخاصة ما يتعلّق بماهية النّص الأدبي.

الاسلوبية البنيوية:

النّص في ظل الأسلوبية البنيوية ظاهرة أسلوبية، والأسلوب« هو الوظيفة المركزية المنظّمة للخطاب» (12) وفي ظلّ هذا التّحديد يأخذ النّص معناه من خلال الظواهر الصّوتية والصّرفية والمعجمية التي تتكامل فيما بينها منتجة أسلوب النّص أو تركيب النص تركيبا لغويا.

التحليل النفسي البنيوي:

النص في منظور التحليل النفسي البنيوي مرتبط بالأديب الذي يصدر في إبداعه عن قطبين أساسيين، حسب التحليل النفسي عند فرويد، اللاشعور والشّعور، والبحث في اللاشعور بوصفه لغة مضمرة يمكّن من اكتشاف جملة القوانين التي تحكم اشتغال النّص بوصفه انعكاسا لمعطيات اللاشعور على مستوى النّص في أبعاده الرمزية، وتتجلّى قدرة التحليل النفسي في بسط اللاشعور بوصفه لغة لها قوانينها المؤسّسة لنظامها وشبكة العلاقات المميّزة لاشتغال عناصر اللاشعور، مبرّر ذلك كلّه أن النّص الأدبي في نهاية المطاف هو صورة عن النّفس البشرية.

ويبدو أنّ الوعي بأهمية اللاشعور وتدخّله في إنتاج النّص، من منظور التحليل النفسي، هو الذي شجّع "جاك لاكان"(J. Lacon) على بلورة منظور بنيوي مستعينا بمعطيات التحليل النّفسي، منطلقه أساسا كون اللاشعور لغة يحكمها نظام، يعدّ فهم آلية اشتغاله وفقه العلاقات المتبادلة بين عناصره خطوة أساسية لاستنطاق اللاوعي واكتشاف دوره في تكوّن النّص الإبداعي.

النص ومرجعية التحليل النّفسي:

جاك لاكان:

حدّد "جاك لاكان" جملة من القواعد الأساسية لتحقيق هذه الغاية حصرها في قاعدتين أساسيتين: قاعدة الاستعارة وقاعدة الكناية، وقد مثّلتا منطلقه الأساسي في تحليله للغة اللاشعور، دون أن يهمل قطبي الدلالة اللذين جاء بهما "دو سوسير"(الدال والمدلول) اللذين ظلا الإطار المرجعي لاشتغال القاعدتين السابقتين(الاستعارة والكناية) منتهيا إلى أنّ "الاستعارة" تقع في مقابل "التكثيف" عند "فرويد" في حين " الكناية" تأخذ موقع النّقل والإزاحة عنده.

في هذا السياق ذاته تؤكّد "جوليا كريستيفا " (J. Kristeva) على أهمية لغة الحلم بوصفها «بنية لها نحوها ومنطقها الخاصّان » واستنادا إلى هذا التّحديد فإنّ المقاربة البنيوية المستعينة بالتحليل النّفسي لا تختلف عن المحاولات البنيوية الأخرى إذ اعتبرت الحلم لغة لها ضوابطها المحدّدة للنظام، ولعلّ الوقوف على حقيقة هذه العناصر وفهم كيفية تموقعها ضمن النظام الذي تنتمي إليه يفتح الوعي على حقيقة العلاقة بين قطبي الكون النفسي للأديب(الوعي واللاوعي)، وهذه خطوة أساسية على مسار فهم بنية النّص الأدبي في مساق المقاربة المتوسّلة بالتحليل النّفسي.

يجدر التذكير في هذا السياق أنّ محاولة إحداث التكامل بين جملة المقولات التي جاءت بها البنيوية والنتائج التي أسفرت عنها الأبحاث التي قام بها "فرويد" في مجال التحليل النّفسي واكتناهه لعالم اللاشعور لم يقتصر فقط على ما ذهب إليه " جاك لاكان" و"جوليا كريستيفا"، كما رأينا سابقا، وإنّما امتدّ إلى تيار "الجاشطالت"(Gestalt) في النّقد النّفسي عبر إسهاماته في إثراء التحليل النّفسي عبر تطعيمه بمقولات البنية الأساسية المحدّدة لطبيعة اشتغال النّص.

النص في منظور لوسيان غولدمان:

يأخذ النّص معناه في منظور البنيوية التكوينية عبر تموقعه ضمن موقع وسط لمجالين متعاكسين، المجال الأول تحدّده الطبيعة اللغوية للنّص مع ما تقتضيه من مستويات تشكيلية، في حين أنّ المجال الثاني تحدّده الطبيعة الاجتماعية المحدّدة لوظيفة النّص ضمن المساق الاجتماعي والمناخ العام الذي ينشأ النص في فضائه.

وفي مثل هذا السياق يتجاوز مفهوم النّص حدود دائرة النّسق وما ينجم عنه من منظومة علاقات تعكس طبيعة اشتغال العناصر اللغوية إلى مفهوم أكثر مرونة وانفتاحا على الوظيفة الاجتماعية للنّص؛ أي قدرته على الاندماج في مجال مظهري التّأثر والتأثير مع الظواهر الأخرى المجاورة له، ما يجعلنا نتصوّر أن النّص في هذا المنعرج الجديد أضحى يدلّ على أنّه تشكيل مؤثّر متأثّر في الآن نفسه؛ أي أنّ النّص صار يأخذ معناه من مجال التّعالق الحاصل بينه وبين البنى الاجتماعية والتاريخية، وفي ضوء هذا المنحى تأكّدت مشاركة النّص في الجدل القائم بين تيارات الوعي؛ أي انفتاحه على طبيعة الصراع الجدلي الذي يستهدف موضوع العلاقة بين المادية المثالية والمادية التاريخية.

وهذه مسالة عمّقت التفاعل بين بنية النّص الأدبي وبنية الواقع وهي سمة أضحت أكيدة في تحوّل حقيقة النّص؛ تحوّل يعزى في المقام الأول إلى لوسيان غولدمان (l. Goldman) بوصفه أحد المنظّرين الذين أسّسوا لهذا الطّرح من خلال مقارباته لوظيفة النّص وإمكانات انفتاحه على البنى الاجتماعية والتاريخية، في ظلّ المتطلّبات البنيوية لتصحيح ممارساتها و إجراءاتها على النّص والتقليل من مبالغتها في التعويل على الدراسة الوصفية للنموذج اللغوي.

قبل العودة مرّة أخرى إلى " لوسيان غولدمان" لمناقشة مفهوم النّص في ظلّ أهم المقولات الأساسية التي جاء بها فيما يخصّ تعالق البنية النصية بالبنى الاجتماعية و التاريخية، يجدر التذكير بفضل "ماركس" و"انجلز" في وضع اللبنات الأولى للطّرح الذي يؤكّد على ارتباط الأدب بوصفه مظهرا فكريا ببنى منفصلة عنه ؛ وحقيقة هذا الارتباط قامت أساسا على الفهم المادي للتاريخ والمجتمع، وعلى طبيعة الصراع الجدلي القائم، أساسا، بين بنية الوعي وبنية الواقع؛ بين بنية الفكر الموّجه وبنية الواقع المحدّد الضابط لعلاقات الإنتاج، ولما كان الأدب شكلا من أشكال الوعي لزم التفكير مرّة أخرى في طبيعة التفاعل بين النص الأدبي وبنية المجتمع الذي يتوجّه إليه وهو المسلك ذاته الذي دفع إلى التفكير في طبيعة الارتباط بين الشكل والمضمون الذي يقتضيه.

ضمن هذا الإطار استفاد "لوسيان غولدمان" وأتباعه من مفهوم البنية الذي تمّ تداوله كثيرا في الفلسفة الماركسية وما نجم عنه من مفاهيم حول تحوّل الصراع وسيطرة بنية على أخرى، وغيرها من المفاهيم التي هيّأت لاحقا للبنيوية التكوينية أو التوليدية (كما هو شائع في بعض المقاربات العربية)، وهي اتّجاه انبثق عن البنيوية الشكلية، سعى إلى التخفيف من سلطة البنيوية اللغوية في التزامها الصارم ببنية النّموذج اللغوي، كاشفا في الوقت نفسه عن قناعة جديدة مؤداها:« أنّ النّص الأدبي يستمدّ معناه وبنيته الدّلالية من رؤية العالم التي يعبّر عنها»(13)، وهي قناعة تبلورت أبعادها بعد أن عملت البنيوية الشكلية(العلمية) على عزل النّص عن الظواهر الخارجية، وأقصت المؤلّف صاحب النّص عن ملكية النّص وانتسابه إليه من منطلق أنّ الأدب، كأيّ نظام آخر،« لا يتولّد من حقائق تنتمي إلى أنظمة أخرى ومن ثمّة لا يمكن اختزاله إلى هذه الحقائق، إنّ العلاقات بين حقائق النّظام الأدبي والحقائق الغريبة عليه لا يمكن ببساطة أن تكون علاقات سببية، لكنّها يمكن أن تكون علاقة تقابل أو تفاعل أو ارتباط أو شرطية» (14) .

في ظلّ القناعات الجديدة بضرورة إحداث تصحيح في مسار البنيوية تتأكّد حقيقة النّص الأدبي بتأكّد إمكانية تعبيره عن متطلّبات الواقع الاجتماعي.

النص في منظور الموضوعاتية البنيوية:

يلاحظ أنّ الموضوعاتية توظّف جملة من الأدوات التي تتداولها الممارسة البنيوية من نحو: البنية، النظام، النّسق، التحوّل وغيرها من المفاهيم، وهذا وجه من أوجه العلاقة القائمة بين الموضوعاتية والبنيوية في بلورة مفهوم النّص الأدبي، أماّ الوجه الثاني من العلاقة فيتحدّد من خلال الموضوع ذاته في إطار الموضوعاتية إذ« يتحدّد بعلاقاته مع الموضوعات الأخرى ؛ إنّه يكتسب معناه من خلال ما يعقده مع غيره من وجوه ارتباط»(15) .

إنّ مثل هذا التوجّه في توصيف "الموضوع" في الاتجاه الموضوعاتي وارتباط هذا الأخير بمفهوم العلاقة، يكشف عن حدود التماس بين البنيوية والموضوعاتية من جهة، وعن التحوّل الذي طرأ على النّص من حيث المفهوم من زاوية نظر الموضوعاتية البنيوية؛ إذ أضحى الموضوع ينطبق على ذاته، وكينونة النص تتجسّد عبر الكشف عن أبعاد الموضوع ذاته؛ المتلبّس بحركة النّص ذاته المتطوّر تبعا لتطوّر عناصر النص ذاتها؛ فهو البداية والنهاية وهو النص في كل تمظهراته، ومن هنا فإنّ مقاربة النص تغدو هي مقاربة الموضوع والإحاطة بأبعاده الداخلية والخارجية، بما في ذلك استيعاب الصّلات القائمة بين النص ومؤلّفه، وهذا يعني أ نّ العمل الأدبي لا يتأتى إلا إذا« استطاع الفكر الناقد أن يحلّ محل الفكر المنقود، إلاّ إذا أفلح في استعادة الإحساس به والتفكير فيه وتخيّله من داخله» (16).

إنّ عملية القراءة للنص لا يمكن أن تأتيّ إلاّ إذا تقمّص الناقد النّص واستغرقه في كل مراميه الدلالية والبنيوية، ولربّما هذا ما تفيده عبارة" استعادة الإحساس" في المقتبس السابق.

مفهوم النص في المنظور النقدي العربي:

إذا كان الموروث الأدبي العربي لم يقدّم لنا مفهوما واضحا يحدّد خصائص النّص الأدبي إلاّ ما تجسّد في بعض الإحالات الضّمنية التي نعثر عليها في علم الأصول وفي بعض أمّهات المعاجم العربية – كما سنقف عليه لاحقا ضمن هذا السّياق من البحث – فكذلك الممارسات النقدية العربية الحديثة والمعاصرة لم تصل – في حدود علمنا– إلى صياغة مفهوم اصطلاحي للنّص الأدبي، وما نجده من مفاهيم في كتب النّقد العربي على دقّته هو منتوج البيئة الغربية توجّها وفكرا ورؤيا، ومردّ ذلك أنّ النقد العربي الحديث ظلّ متكئا على المرجعية الغربية، ما تعذّر عليه أن يبلور مفاهيم تخصّه؛ ترتبط بموروثه الثّقافي و بخصائص لغته العربية وبطبيعة أدبه.

واقع الحال هذا هو ما جعل " مها خير بك ناصر " تصف التجربة النقدية العربية المعاصرة بالخسران بسبب عدم تمكّنها من تأسيس ممارسة نقدية عربية أصيلة نابعة من خصوصيات الثقافة العربية ومن عمق اللّغة العربية،إذ تقول:« فخسر النقد العربي المعاصر موقفه لأنّه لم يستطع تحديد هويّة ذاتية له، ولم يكتسب مناعة تقيه من التّبعية،

فرسخت مناهج شكلية حافظت على أساليب جامدة، سواء أكانت تقليدية أم مستوردة، لأنّها تفتقد إلى كمون الأصل، و إلى خصوبة الوافد » (17).

كما اشرنا سلفا أن المدوّنة العربية القديمة لم تبلور مفهوما محدّدا للنص، لكن المعاجم العربية تطالعنا على بعض المعاني التي تقترب إلى دلالة مفهوم النّص المتداولة في النقد الأدبي الحديث والمعاصر، فلفظة "نص" تؤدي جملة من المعاني أهمّها:

- الرفع: " فالنص رفعك الشيء، نصّ الحديث ينصّه نصّا: رفعه" (18).
- الظهور والبروز: كلّ ما أظهر فقد نصّ، ومن ذلك المنصّة، ويقال:"نصّ العروس"(19): أقعدها على المنصّة لترى.
- أقصى الشيء وغايته: ومنه "نصّ النّاقة"؛ أي استخرج أقصى سيرها(20)
- التراكم: نصّ المتاع نصّاً : جعل بعضه على بعض(21)
- الاستواء والانتظام: انتص الشئ وانتصب إذا استوى و استقام، ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله: "إذا بلغ النساء نصّ الحقاق أو الحقائق فالعصبة أولى"(22)

فنصّ الحقاق هو المنتهى: الاكتمال والقدرة والنضج وبلوغ العقل، ويقال: "بلغ الشئ نصّه ؛أي منتهاه"(23).

- الإظهار: وهو عند الفقهاء : نصّ القرآن والسنّة ،فثعلب يقول:"النصّ كشف وإظهار، وكل مظهر فهو منصوص، وكل تبيين وإظهار فهو نصّ"(24).

يبدو واضحا أنّ هذه المعاني تتّفق على أنّ النّص في اللّغة العربية يؤدي معنى التجسّد الفعلي للشئ في أكمل صورة له(الظهور والاكتمال)، وإذا ما أضفنا إلى المعنى السابق مظهر الحركة فهذا يعني أنّ المعنى اللّغوي للنص في العربية يتوافق في أبعاده مع بعض مراتب المعنى التي يكونها النص بالمعنى النّقدي الاصطلاحي في العصر الحديث خاصة في المنظور الغربي – كما رأينا سلفا- حيث يؤدي النّص معنى البنية المكتملة المغلقة حول نفسها والمتّسمة بطابع التحوّل من خلال العلاقات المتبادلة بين عناصرها في إطار النّظام الذي تشتغل ضمنه.

أمّا اصطلاحا فانه يمكن التمييز بين موقفين أساسين فيما يتعلق بالنص في التراث العربي :

-الموقف الأول من حقيقة النص يتجلّى من خلال موقف فريق لا يجيز بتأويل"النّص" ويجعل منه دلالة منحصرة في« اللفظ المقيّد الذي لا يتطرّق إليه احتمال ولا يتطرّق إليه التأويل» (25)، ويتعمّق هذا المعنى في " المستصفى في علم الأصول"« فيغدو النّص هو الذي لا يحتمل التأويل» (26).

لعلّ الإصرار على تقييد النّص عند أبي حامد الغزالي وغيره، مردّه التخوّف من افتراق المسلمين في أمور دينهم خاصة في مجال العبادات والواجبات التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، فخوفا من انفصام الصف تأكّدت ضرورة عدم القبول بتأويل النّص في مجال علم الأصول، وهو الموقف نفسه عند ابن حزم إذ يعرّف النّص على انّه:« هو اللفظ الوارد في القرآن والسنّة مبينا لأحكام الأشياء، ومراتبها، وهو الظّاهر، وهو ما يقتضيه اللّفظ الوارد والمنطوق بها»(27) مع اختلاف في التحديد، إذ يبدو أن مصطلح" النّص" في منظور ابن حزم موقوف على القرآن والسنّة لا يتعداه، خلافا لبعض التعريفات التي لا تربطه ربطا مباشرا بلفظي القرآن والسنة.

أمّا الموقف الثاني المرخّص لصفة التأويل في النّص، فيتعيّن من خلال موقف ابن عربي من تأويل الكلام، إذ يقول:« فما في الكون من كلام لا يتأوّل» (28) ما يجعلنا نستشف أنّ التأويل هو صفة ملازمة للكلام، طالما أنّ ثمة نفيا لصفة التقييد عن كل الكلام في قول ابن عربي. وهو الاتجاه نفسه الذي سلكه السيوطي عندما أجاز تأويل النص من منطلق أن المعنى يتعدد بتعدّد القرائن الحالية والمقالية كما يوضّحه قوله:« وقد نقل عن قوم من المتكلّمين أنهم قالوا بندور النّص جدا في الكتاب والسنّة، وقد بالغ إمام الحرمين وغيره في الردّ فقال: لان الغرض من النص الاستقلال

بإفادة المعنى على قطع مع انحسام جهات التأويل والاحتمال. وهذا إن عزّ حصوله يوضع الصيّغ ردا إلى اللغة، فما أكثره من القرائن الحالية والمقالية» (29).

من المواضع التي احتلّ فيها النص موقعا اصطلاحيا قريبا من اللغة والأدب وقريبا من الاستخدامات الاصطلاحية الرائجة في النقد الحديث والمعاصر ما ذهب إليه الجاحظ في " بيانه " في القرن الثالث الهجري، حيث قدّم توصيفا للبيان لا يختلف عن توصيف النص في العصر الحديث،إذ يقول:« فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع» (30).

فمثل هذا الكلام لا يختلف عن ماهية النّص في عصرنا؛ فماذا عساه يكون النّص غير قناة لتوضيح المعنى وتحقيق الفهم، ما جعل من البيان عنده يأخذ معنى النّص المتداول اليوم بجامع الاكتمال والظهور وتحقّق الغاية المنشودة في الجنسين(البيان والنص)، ولعلّ الوعي بعمق نظرية البيان عند الجاحظ وأثرها في صياغة نظرية شاملة للنص هو ما جعل الباحثة "نهلة فيصل الاحمر" تقرّ بفضل آراء الجاحظ على كثير من نظريات النّقد الحديثة،إذ تقول:« الحقيقة إن نظرية البيان هذه عند الجاحظ في القرن الثالث الهجري التاسع للميلادي تكاد تكون نظرية شاملة لمعنى النّص، ليس فقط كبيان ووضوح، ولكنّها تتجاوز المعنى اللغوي والاصطلاحي في الثقافة العربية لتتشابه مع ما أنتجه الفكر الغربي حول معنى "نص" في كثير من نظرياته وتعريفاته وخاصة الحقل السيميائي » (31).

نجد في تقسيم الجرجاني للفظ وفق مستويات أربعة ما يقربّنا إلى المفهوم المعاصر لمصطلح"نص"، إذ يقول:« وهو باعتبار وصفه(النظم) أربعة أقسام الخاص والعام والمشترك والمؤوّل ووجه الحصر أنّ اللفظ إن وضع لمعنى خاص، أو لأكثر، شمل الكلّ فهو العام، وإلا فمشترك، إن لم يندمج أحد معانيه، وإن ترجّح فمؤول و اللّفظ إذ اظهر المراد يسمى ظاهرا بالنسبة إليه ثمّ إن زاد الوضوح بأن يسبق الكلام له يسمى نصّا، ثمّ إن زاد الوضوح، حتى سقط باب احتمال النّسخ أيضا يسمّى محكما»(32) .

يبدو من هذا المقتبس أنّ الجرجاني يضع شرطين أساسيين حتى يرقى اللفظ إلى درجة النّص وهو الوضوح، وهذا ما يذكّرنا بأحد المعاني التي يؤديها لفظ "نص" في اللغة العربية – كما لاحظنا آنفا–ولعلّ اللافت للنظر في قول الجرجاني أن قوام النص هو اللفظ، وما تسمية " النص" إلا صفة أو تدرّجا يكونه اللفظ وهو معنى سابق على بعض المفاهيم الحديثة حول النّص عندما عرّفته في سياق استخدام اللفظ، وما يحققه من مستويات لتحوّلات المعنى وضوحا وإحكاما وتخصيصا وتعميما..ومن ذلك هذا التعريف الذي مؤداه:« النّص وحدة لغوية في حالة استعمال » (32).

يبدو واضحا أنّ هذا التعريف ليس شيئا غير تلخيص لموقف الجرجاني من تطوّر اللفظ في سياق استخدامه، وينطبق الحال نفسه على التعريف الذي يقف من النّص كونه:« مدوّنة لحدث كلامي ذي وظائف متعدّدة» (33)وهو تعريف، بالقياس، على كلام الجرجاني السابق حول اشتغال النظم وتطور اللّفظ ضمنه لا يكاد يضيف شيئا جديدا. ما يجعلنا نعيد النّظر في مسألة قيام مفهوم للّنص من عدمه في التراث النقدي العربي.

مثلما كانت الصعوبة حقيقة ماثلة في العثور على تعريف واضح مستقلّ للنّص الأدبي في التراث النقدي العربي، كما تجمع على ذلك كثير من الدراسات المشتغلة على النّص والتفاعل النّصي(34)، فالوضع نفسه بالنسبة لمفهوم النّص في الدراسات النقدية العربية المعاصرة، ولعل مردّ ذلك هو اختلاف المرجعيات الثقافية والفكرية التي يصدر عنها كل تيّار.

مفهوم النص في الدراسات النقدية العربية المعاصرة:

يرى صلاح فضل أنّه يتوجّب علينا القبض على معطيات البنيوية ونتائجها حول الكيفية التي تشتغل وفقها العناصر اللّغوية تحت سقف النّظام، و الإلمام بمقولات البحوث السيميولوجية التي تموضع أطر العلاقة بين النّص الأدبي والواقع الذي يترعرع بين أحضانه، إذ يقول:« علينا أن نبني مفهوم النّص من جملة المقاربات التي قدّمت له في بحوث البنيوية والسيميولوجية الحديثة »(35) وهو موقف يشي بأسلوب صلاح فضل في القبض على العصا من

وسطها، للحفاظ على التوازن في الطرح النقدي لموضوع النص الأدبي خاصة وأنّ هذا الأخير(النّص) كان محل تنازع مستميت لمجموعة من النظريات والأطر المنهجية وأدواتها المرافقة التي تسعى إلى الإحاطة بكنه النص الأدبي والوقوف على أسرار اشتغاله، ولئن كان مثل هذا الموقف ينمّ عن خبرة في التّعامل مع النص الأدبي وعن حكمة في التّعامل مع الظاهرة موضوع الدّرس عندما تتضارب المعطيات وتتداخل الظواهر فيما بينها، من منطلق أنّ أخذ الموقع الوسط هو حكمة في ذاته، فإن هذا الأسلوب في ساحة معركة المفاهيم يكشف عن غياب اصطلاح مستقل وبالتالي عن رغبة في الاتكاء على نتائج البحث في النّقد الغربي من جهة وعن رغبة في مسايرة منجزاته المتعلّقة بالنّص.

وفي كلا الحالتين نقف على سلوك لا يثري الدرس النقدي المعاصر بالإضافة المبتكرة والجديدة المحدّدة للخصوصية على طول الخبرة والتجربة في مجال النص الأدبي، وهو وضع جعل الباحثة " مها خير بيك ناصر" تقوّم مساهمة النقاد العرب في الدرس النقدي الحديث والمعاصر واضعة إصبعها على موطن القصور إذ تقول: «ساعدت بنية النّص العربي النّقاد العرب على تشريح النّصوص بنيويا، وعرفت السّاحة النّقدية أبحاثا لمفكرين تناولوا هذا الجانب النّقدي بالدراسة والتمحيص، فجاء نقد كمال أبو ديب و "الياس الخوري" وخالدة سعيد خطوة رائدة في خرق المألوف، ولكنّ دراساتهم لم تؤسّس لنظريات نقدية عربية، تنطلق من خصوصية البديهيات والفرضيات والمسلّمات الذاتية لطبيعة المنطوق العربي» (36).

يأخذ النّص موقع التساؤل عند محمد مفتاح بصيغة :"ولكنه ما هو النص" ليقدّم تصوّره عن حقيقة النص قائلا:« أهم ضابط للنّص هو الانسجام وهو يضمّ عدة عناصر، وفي هذا المفهوم خلاف، يمكن أن نتكلّم عن مفهوم الاتّساق ومفهوم التنضيد، فمفهوم التنضيد هو المرحلة الأولى أي العلاقة بين الجمل: واو العطف، فاء السببية إلى غير ذلك :ارتباط الكلام بعضه ببعض وتراصيه.. ونقصد بمفهوم الاتّساق العلاقة المعنوية بين الجمل علاقة عموم بخصوص أو علاقة تضمّن ومفهوم الانسجام هو اعمّ، انسجام النّص مع العالم الواقعي،إذ أنّ كل نصّ هو كل متتالية من الأفعال الكلامية المترابطة..فالنّص عبارة عن متتالية من الجمل بينها علاقة من العلاقات ومتى انعدمت هذه العلاقة لا يبقى هناك نص» (37).

التأمّل في القول السابق يحيلنا إلى ملاحظتين أساسيتين:

الأولى: أنّ محمد مفتاح يجعل من مقولة الانسجام قاعدة للنّص وضابطه، وهو موضوع نال حقة من الدراسة والتحليل عند هاليدي ورقية حسن في إطار اللّغة الانجليزية وفي ظلّ الاتجاه المعروف بالنّحو الوظيفي وهو في الأصل خاصية بنيوية على نحو ما ذهب إليه حسين خمري(38)، ما يجعل من هذا المفهوم ينزلق ضمن التكرارية والاجترارية، على غرار ما هو شائع في النّقد العربي مع كثير من المفاهيم المتعلّقة بمصطلحات كثيرة ؛ لا تقتصر على مفهوم النّص وحده.ثم إنّ محمد مفتاح يجعل من " الانسجام" ضابطا للنص؛ بمعنى أن كينونة النص مبنية أساسا على الانسجام بين اللفظ ومعناه وبين العلاقات المتشكّلة بين تجاور الألفاظ داخل النص، وهو ما يمنحه شرعية التواجد ليس فقط من حيث حضور النص وتواجده ماديا، وإنماّ على مستوى القارئ؛ أي أنّ النص بوصفه رسالة لا بد أن يتوافر على درجة من الانسجام حتى يتلقاها القارئ بوصفه متلقيا للرسالة بشكل منطقي وعقلاني .

نفهم أنّ الانسجام صفة ذاتية خاصة بالنّص ذاته، إلاّ أنّ هذا الفهم يصبح غير مجد ومهدّدا بالقصور عندما نجد محمد مفتاح في السيّاق نفسه يجعل من الانسجام صفة للعلاقة بين النص وفضائه الخارجي؛ ما يبعث على التساؤل حول طبيعة النّص الذاتية وطبيعته الخارجية؛ أعني محدّدات النص الداخلية والخارجية، لأنّه – في تقديرنا– أنّ ما يمكّن من وجود النّص وجودا مستقلا ليس هو ما يحدّد علاقته بفضائه الخارجي؛ فإذا كانت المحدّدات الأولى لنشأة النص ثابتة ودائمة، فانّ من طبيعة المحدّدات التي تضبط علاقته بفضائه الخارجي الظّرفية ؛ فهي مؤقّتة بحسب المتغيرات الحاصلة في موضع التماس بين النص ووسطه الخارجي.

الثانية: إن ربط مفهوم النص بمتتالية من الجمل بينها علاقة من العلاقات وافتقاد النّص لهذه العلاقة يؤدي إلى تلاشي النّص هو طرح وطيد الصّلة بمفهوم النّص في ظلّ المنظور البنيوي الذي يجعل من العلاقات المتبادلة بين عناصر النّسق المحدّد أساسا لمفهوم النص الأدبي.

عبد الملك مرتاض ومفهوم النص:

يعرّف عبد الملك مرتاض النّص كونه:« شبكة من المعطيات اللّسانية والبنيوية والايديولوجية تتضافر فيما بينها لتكوّن خطابا، فإذا استوى مارس تأثيرا عجيبا، من أجل إنتاج نصوص أخرى، فالنّص قائم على التجدّدية بحكم مقروئيته وقائم على التعدّدية بحكم خصوصية عطائيته، تبعا لكل حالة يتعرّض لها في مجهر القراءة، فالنّص، من حيث هو، ذو قابلية للعطاء المتجدّد بتعدّد تعرّضه للقراءة» (39).

يمكن أن نستشف من هذا التعريف فكرتين أساسيتين، تتمثل الفكرة الأولى في كون عبدالملك مرتاض يستقي مفهومه من المرجعية اللسانية والبنيوية من جهة ومن معطيات المرجعية الإديولوجية؛ التي يمكن أن تتّسع لتشمل التيار الواقعي المنبثق عن الفكر الماركسي وغيره من المذاهب التي تحرّكها الايدولوجيا، ويبدو أنّ مثل هذا التعريف نابع من خلفيتين فكريتين متناقضتين، كما هو واضح، لانّ النّص في المنظور البنيوي هو« بنية لغوية مقفلة، مكتفية بذاتها في إنتاج المعنى، لا تحيل إلاّ عليها، طاقة تشتغل دونما حاجة إلى اعتبار سياق النشأة والتقبّل »(40) كما تقف البنيوية أيضا من النص كونه« عالم ذري مغلق على نفسه موجودا بذاته » (41) أماّ النص في المنظور الإيديولوجي فهو انعكاس لطموحات الايدولوجيا وهو مرتبط بسياقها العام وبنظامها الكلي.

ويترتّب عن هذا أنّ مفهوم النص لدى عبد الملك مرتاض محصّلة لتصور شمولي، ولا يبدو ذلك غريبا في نظرنا، إذا ما وضعنا في الحسبان أنّ مرتاض لم يتقيّد بمنهج محدّد عبر مساره النقدي، فشأنه شأن النّحلة التي تأخذ من كل روض ما تحتاجه لغذائها، وهذا حال يؤكّد لنا مرة أخرى التصاق النّقد العربي بكل ما قد تحقّق في البيئة الغربية من أدوات منهجية للمعاينة ومقولات فكرية للنظر في مسالة النص الأدبي، إلا أنّ الذي يهمّنا في هذا المساق من البحث هو كيفية بلورة عبد الملك مرتاض لمفهوم النص الاصطلاحي في مسلك يتنازعه اتّجاهين متعاكسين، ولا ريب أنّ مثل هذا التركيب قد يحقّق مفهوما مخالفا، لكنّه لا يحقّق مفهوما جديدا ينبثق عن رؤية أصيلة خاصة تستقل، بحقيقة النص.

أماّ الفكرة الثانية التي يمكن أنّ نستشفّها من تعريف مرتاض للنّص فتتجلّى في كونه يجعل من الخطاب كلاّ والنص جزءا؛ فإذا كان الخطاب وحدة كبرى فإنّ النّص أو النصوص وحدات جزئية من هذا الخطاب، يضاف إلى ذلك أنّه جعل من النّص نشاطا مستمرا، ما يشي بانفتاح مفهومه للنّص على نظرية القراءة وجماليات التلقّي؛ التي تجعل من فعل القراءة تكملة للنّص المكتوب وإسهاما إضافيا في بنائه.

موقف مرتاض من النص بوصفه جملة من الإمكانات القابلة للتحقّق، اجتماعيا ولغويا وإبداعيا ..مردّه – في تقديرنا– إلى عدم اقتناعه بضبط النّص بمفهوم علمي صارم،لأنّه من المرونة والزئبقية ما يجعله يتجاوز التدقيق والتّحديد، على الرّغم من كون بعض الاتّجاهات الحداثية قد قطعت شوطا كبيرا في إضفاء صفة التدقيق والتّحديد(العلمي) على حقيقة النّص، من ذلك ما قدّمته البنيوية وما تلاها من مناهج تجعل من النّص موضوعها الأساسي في البحث والمقاربة، لذلك يأخذ النّص مفهومه عند عبد الملك مرتاض من البنيوية ومن الاديولوجية ومن السياقية في الآن نفسه مؤكّدا عبثية علمنته وضبطه ضبطا نهائيا ضمن مساق بحثي معين؛ إذ يقول:

« عبثاً يحاول الذين يُعلمنُون النّص أن يتّخذوا لكتابته، أو لقراءته علماً صارماً كل الصرامة به يُحكم، ومعياراً دقيقاً كلّ الدقة إليه يُحتكم...لا علم للنصّ، فيما يبدو...وإنّما النصّ فنّ، من قبيل الفنون العبقريات الحسان، فبأي أداة يمكن علمنة ما لا يُجدي فيه البرهان، علمنة النصّ تشويه لخلقته وتبشيع لصورته، وتقبيح لبهائه، بل تدمير لكيانه...محاولة العلمنة زعم شكلاني جاء من أقصى بلاد الرّوس، ولم يُفض إلاّ إلى نقيض القصد...»(42) .

منذر عياشي و مفهوم النص:

هذا الموقف من انفتاح النص على أكثر من حقيقة، وتموضعه ضمن أكثر من مساق منهجي هو ما سلكه منـــذر عياشي ؛ اذ يقول معربا عن فهمه لحقيقة النص:« فالنّص دائم الإنتاج لأنه مستحدث بشدّة، ودائم التّخلّق لأنه دائما في شأن ظهورا وبيانا، ومستمرّ في الصيرورة لأنه متحرّك، وقابل لكل زمان ومكان لأن فاعليته متولّدة من ذاتيته النّصية، وهو إذا كان كذلك، فإن تعريفه وضع يُعتبر تحديدا يُلغي الصيرورة فيه، ويعطّل في النهاية فاعليتـــه النصـــية »(43). وهو السياق نفسه الذي تموضع فيه محمد مفتاح في تقديم فهمه للنّص، إذ يعرّفه:«النّص مدوّنه حدث كلامي ذي وظائف متعدّدة..لأنه متولّد من أحداث تاريخية ونفسانية ولغوية.. وتتناسل من أحداث لغوية أخرى»(44).

فالنص بهذا المعنى إطار جامع لمجموعة من الفعاليات، التركيبيـــة والنحويـــة والدلاليـــة والصـــوتية والقيميـــة ..فهو،إذن، على درجة من التعقيد ما يجعل ضبطه بتعريف دقيق أمرا متعذّرا على كثير من المحاولات التي تسعى إلى تقديم مصطلح للنّص جامع شامل، تتفق عليه الأغلبية من أهل النّظر النّقدي ، ولعلّ حصره في قالب البنية اللغوية وما تنطوي عليه من إمكانات للتحوّل الذاتي في المنظور الغربي ضمن أشهر التيارات النقدية الغربية المعاصرة، يعدّ أهـــمّ التّحديدات المنجزة ، والتي من شأنها أن تحافظ على تداول مصطلح النّص، في الميدان الأدبي، تداولا لا يحيـــل علـــى الاختلاف والتعدّد بقدر ما يحيل على ثبات المصطلح وعلى الدّقة في المفهوم؛ لأنّ تسمية الشئ مع إمكانية أن يعني كذا وكذا..لا يتلاءم وفعل الاصطلاح ذاته الذي يسعى، قدر ما يمكن، إلى الصيغة الواحدة التي يمكـــن أن تنـــال إجمـــاع الغالبية من أهل الاختصاص, وتجعل من المصطلح عليه عملة متداولة بالقيمة ذاتها عند الجميع.

هذه ،إذن، أهم المنعطفات التي شهدها تشكلّ مفهوم النص في ظلّ مسار الطروحات الغربية والعربية على حـــدّ سواء، وهي طروحات تشترك، على تباينها في منطلقاتها الأساسية في المفهوم الذي تقدّمه للـــنّص، والـــذي لا يكـــاد يخرج عن كونه بنية لغوية تستند على الاتّساق وعلى ما هو متاح من انظمة علائقية بين عناصرها.

ثبت مصادر ومراجع المقال:

1): عمر الشارني، المفهوم في موضعه أو في العلاقة بين الفلسفة والعلوم، دار الجنوب تونس1992، ص:16

2):شكري عزيز الماضي، من إشكالات النقد العربي الجديد, دار فارس للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة العربية الاولى1997: ،ص: 17-18

3):ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المملكة العربية السعودية1995 ،ص:29

4): روبرت شولز، البنيوية في الأدب ترجمة حنا عبود، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية 1984، ص: 100

5): نفسه، ص: 96

6): فخر الدين جودت، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط1، 1984ص: 193

7): سعيد ياقطين، تحليل الخطاب الروائي،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،ط1 1989،ص: 164

8): بسام بركة، اللغة والبنية الاجتماعية، مجلّة الفكر العربي المعاصر، العدد:40، 1986 ،ص: 73

9):كريستوفر نورس، التفكيكية – النظرية والتطبيق، ترجمة رعد عبد الجليل مراد، دار الحوار للنشروالتوزيع، اللاذقية، سورية 1981.ص:'48

10): منذر عياشي، الخطاب الأدبي ولسانيات النص، المعرفة السورية، العدد المزدوج300-1987،301 ص:13

11)محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء المغرب ط1،ص:13

12): عبد السلام المسدّي، الأسلوب والأسلوبية، ص: 119

13): جمال شحيد، في البنيوية التركيبية(دراسة في منهج لوسيان غولدمان) دار ابن رشد للطباعة والنّشر، ط1 1982،ص: 82

14):عبد العزيز حمودة، المرايا المحدّبة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،ع :1998،232 ،ص:188

15): عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعي(نظرية وتطبيق) شراع للدراسات والنشر والتوزيع 1996، ص: 43

16): عبد الكريم حسن، محايثة أم محالة، بحث في تاويل المصطلح، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد54-55،ص:51

17): مهاخير بك ناصر، مجلّة الخطاب ،منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولود معمري ،ع:2دارالامل للطباعة والنشر،ص:209

18):الزمخشري، أساس البلاغة، ت: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت1982(مادة نص)

19): الزبيدي، تاج العروس، ت: عبد الكريم الغرباوي، وزارة الإعلام، الكويت1979،الجزء 18

20):ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف بمص،(د.ت)ج6، مادة (نص)

21):مصطفى الكيلاني، في الميتالغوي والنص والقراءة، منشورات دار أمية، تونس، ص:23

22):الفيروز أبادي مجد الدين محمد، القاموس المحيط،دار الجيل بيروت، المجلد الثاني،ص: 331وايضا: ابن منظور، لسان العرب،ج6،ص:444

23):محمد الصغير بناني، مفهوم النص عند المنظرين القدماء، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، العدد:12،ديسمبر1997،ص:40

24):ثعلب–مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون،دار المعارف مصر، 1969 ج 1 ،ص:10

25):أبو حامد الغزالي، المنخول في تعليقات الأصول،(د،ط)،(دت)،ص:65

26): أبو حامد الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تحقيق محمد حسن هيتو، دمشق1970 ،م 1/ص: 384

27): ابن حزم الأندلسي، رسائل ابن حزم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية بيروت1980، م4 ،ص:415

28)نصر حامد أبوزيد، النص– السلطة– الحقيقة،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،بيروت،1995،ص:149

29):جلال الدين السيوطي، الإتقان في علم القرآن، المكتبة الثقافية، بيروت 1973،ص:31

30):الجاحظ(عمرو بن بحر)، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي،القاهرة 1986-م ج1،ص:75

31):نهلة فيصل الأحمر،التفاعل النصي-التناصية، النظرية والمنهج، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، شركة الأمل للطباعة والنشر 2010،ص:27

32):علي بن محمدالشريف الجرجاني،التعريفات،مكتبة لبنان، بيروت ،ط، 1985ص:214

33): سعيد ياقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي،بيروت، الدار البيضاء،ط،1989ص:16

34): فاضل ثامر، اللغة الثانية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ط،1994، ص: 73

35): للاستزادة ينظر: حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف ط1 2007،أيضا:سعيد حسن بحري، علم لغة النص- المفاهيم والاتّجاهات- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط2، القاهرة،2010و أيضا: نهلة فيصل الأحمر،التفاعل النصي-التناصية، النظرية والمنهج(مرجع سابق).

36): صلاح فضل،بلاغة الخطاب وعلم النص،ص:229

37)مها خير بك ناصر،النقد البنيوي العربي، مجلة الخطاب(مرجع سابق) ،ص:202

38): "التحليل السيميائي: أبعاده وأدواته" (حوار مع محمد مفتاح)، مجلة "دراسات سيميائية أدبية لسانية" (سال)، فاس، ع.1، 1987،ص: 17

39):للاستزادة ينظر: حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، مرجع سابق،ص:49 من كتابه

40):عبد المالك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة"أين ليلاي" لمحمد العيد آل الخليفة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر،(د،ت) ص55

41):دار الهمامي، القارئ سلطة أم تسلّط،الموقف الأدبي، دمشق، العدد:330 ،ص:23

42):محمد بنيس ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار العودة، بيروت 1979، ص:21

43):عبد الملك مرتاض:نظرية النص الأدبي،منشورات دار هومة للطباعةوالنشروالتوزيع،الجزائر،2007م،ص:07

44): منذر عياشي، النص: ممارساته وتجلياته، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع/96-97، 1992، ص. **55**

45)محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشّعري،ص: 120،وما بعدها.